الفصل الثالث عشر

الحب الأول

قال أبو تمام في الحب الأول ..

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ..

ما الحب إلا للحبيب الأول ..

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ..

وحنينه أبدا .. لأول منزل ..

عندما يقابل الإنسان الحب الأول .. غالبا ما يكون في بداية حياته .. في فترة المراهقة .. وبلا تجارب أو خبرات .. ويكون بداخله رغبة شديدة للإحساس بالحب .. فيكون الوقوع في الحب الأول مبني على الرومانسية والخيال والعواطف .. بعيدا بعض الشيئ عن العقل وظروف الحياة والتزاماتها ..

وعادة ما يكون الحب لإبن الجيران أو زميل الدراسة أو أحد الأقارب ..

وقد يكون الشاب في هذه الفترة غير قادرعلى حماية حبه الأول .. لعدم جاهزيته المالية .. وعدم جاهزيته من ناحية متطلبات الزواج .. مما ينتج عنه تخلي الفتاة عنه ..

وربما تجبر الفتاة على الإرتباط بالشاب الأكثر جاهزية .. عندما تفشل في إقناع حبيبها في التقدم لها ..

وبذلك يولد الحب الأول ضعيفا .. لا مكان له إلا القلب ..

بينما على أرض الواقع .. سرعان ما يختنق الحب ويموت ..

ربما ينجح الحب الأول في أن يكون الحب الأخير أيضا.. ولكن هذا لا يكون إلا في حالات قليلة .. ولأشخاص هم بحق محظوظين ..

فما هو الحب الأول ..
الحب الأول هو تلك التجربة الوليدة الأولى في الإعجاب .. ثم الإنجذاب ..

ثم الميل و الرغبة في العيش مع الجنس الآخر ..

والإرتباط الشديد به .. بما يصاحب ذلك من شوق .. وحنين ..

ثم التعلق به .. والإحساس بالعذاب في غيابه ..
وقد يولد الحب الأول وهو يحمل بذور فشله في رحم ولادته ..

حيث التجربة هنا .. هي كأي تجربة إجتماعية يمر بها الإنسان ..

تتأثر بعوامل كثيرة معقدة .. متشابكة .. ربما لا يستطيع الحبيبان فك تشابكاتها ..

وحل عقدها ..

فتكون الأمواج عاتية .. وتغرق المشاعر في بحر المشاكل العميق ..

وتستقر في القاع ..

فهذه التي أحبت عاملا في مصنع أبيها .. بينما يرتب لها الأب للزواج من إبن رجل أعمال

يفوقهم ثراء ..

فسوف تكون العوائق بركانا مدمرا ..

وهذا إبن الطبقة الأرستقراطية .. الذي أحب زميلته بالجامعة .. وقد انحدرت من أسرة

ما كانت إبنتهم لتلتحق بالجامعة .. لولا التضحية الغالية منهم .. بكل شيء .. كاستثمار لهم .. ربما استطاعت أن تنهض بحالهم .. وتساعدهم في المعيشة بعد التخرج ..

هذه الحالات .. ومثلها الكثير .. يكون مقضي فيها مقدما بموت الحب .. قبل أن يولد ..

ولا يبقي منه إلا الذكرى ..

ولا أري أن هذا هو الحب الأول والأخير ..

فسوف ينسي الطرفان هذه التجربة .. وتظل مجرد تجربة .. مثل الكثير من التجارب ..

التي يتعثر فيها الإنسان .. مع مرور الزمن ..

فتفشل تجربة .. وتنجح تجربة .. ولن تتوقف الحياة ..

بل علينا أن نستفيد من تجاربنا ..

وهو ما يشكل الخبرات التراكمية في حياتنا .. فتجعلنا أكثر حكمة .. وأصلب عودا ..

في مواجهة ريح الحياة العاصفة ..

وهو ما حدث " لعفاف " ..

لقد أحبت عفاف زميلها في الكلية .. " مدحت " ..

وطوال أربعة أعوام .. كانت عفاف تنتظر يوم التخرج .. وليس أمامها من أهداف ..

إلا أن يتزوج بها مدحت ..

وكان هذا هو حبهما الأول ..

وجاء يوم التخرج ..

وإعتذر لها حبيبها ..

فلن يستطيع الزواج بها .. لظروفه المادية ..

فالحب وحده لا يكفي .. وليس بالحب وحده تستمر الحياة ..

فالحب يحتاج إلي قوة أخرى .. ومقومات أخرى .. لكي ينجح ..

هي قوى أخري مادية .. إلى حد بعيد ..

ورغم أن الصدمة كانت قاسية علي قلبها ..

فقد تزوجت .. ولم تدمرها التجربة الفاشلة ..

بل أحبت زوجها .. وأخلصت له ..

وتزوج مدحت بعد أن سافر إلي بلد عربي ..

وجمع من المال ما يكفيه لحياة رغدة .. ناعمة ..

وحدث أن مات زوج عفاف ..

وعلم مدحت بموته ..

وذهب إليها .. يطلب منها الصفح عما بدر منه في سابق الأيام ..

ويبدي رغبته في إيقاظ " الحب الأول " ..

وإزاحة الستائر التي أسدلتها الأيام .. لنفخ الحياة في مشاعر ماتت منذ زمن ..

قالت له :

لا تفكر في ذلك .. فأنا أخلص لزوجي .. رغم موته ..

فإن حبه في قلبي لم .. ولن يموت ..

قال لها أنه لا زال يحبها .. رغم مرور كل هذه السنوات ..

ورغم أنه قد تزوج .. وأنجب ..

سألته :

كيف تفكر في خيانة زوجتك ؟! .. إنني أعرفها ..

إنها زوجة رائعة .. ولا تستحق منك .. رد إخلاصها لك .. بخيانتها ..

أجابها بأنه إنما يدافع عن حبه الأول ..

كما أن الزواج من أخرى ليس خيانة ..

قالت له :

إنك بهذا تحطم كل المباديء التي حشوت بها عقلي وأفكاري .. طوال أربع سنوات الجامعة ..

والتي آمنا بها معا ..

في خجل .. قال :

أحيانا يضطر الإنسان لأن يتخذ من القرارات .. ما يخالف المباديء التي يؤمن بها ..

قالت له في قوة وإصرار :

ماذا يبقي لنا إذا تخلينا عن المباديء التي نؤمن بها ..

سوف نخسر أنفسنا .. ونخسر معها كل شيء ..

وسوف تتحول الدنيا إلي غابة من الوحوش ..

وهكذا خسر مدحت ما يسميه هو بحبه الأول ..

كما خسر حبه الآخر ..

فبعد أن علمت الزوجة ما كان منه .. من خيانة لحبها .. قررت الإنفصال ..

حتي لا تهب حياتها وقلبها وحبها .. لإنسان يخونها .. ويخون حبها ..

وقد جاء الحب الأول في التراث العربي .. وأحيانا التراث العالمي أيضا ..

علي أساس أنه الحب الأول والأخير .. والذي لا يأتي بعده حب .. بنفس المنزلة ..

وهذه العلاقات تتكرر كثيرا في حالات حب المراهقة ..

حيث يدرك المراهق أن هناك جنس آخر .. فيميل إلي التعامل معه .. خاصة بعد أن

يحدث له تغييرات فسيولوجية معينة .. فيعلم أنه قد بلغ سن الرجولة .. أو تعلم البنت

أنها قد بلغت سن الأنوثة ..

وفي هذه المرحلة .. أحيانا ما تبدأ بوادر الحب الأول .. عند الفتيات .. وأيضا عند الفتيان ..

حيث يمثل إبن الجيران بطل هذه العواطف ..

وتمثل إبنة الجيران محور الحب الذي يفتتن به الشاب ..

وربما كان سن الخامسة عشرة هو السن المرشح لبداية هذه الحكايات التي لا تنتهي

من الحب ..

قد يكون هو الحب الأول ..

قد يكون هو الحب الأول .. والأخير .. قد يكون حبا من طرف واحد ..

ولكن هناك فريق آخر يرى إن الحب الأول تجربة انقضت .. وأن الحب الحقيقي .. والواقعي .. سوف يكون للحبيب الآخر .. حيث يعيش المرء في كنفه ويشعر به .. وهو حب لا يموت ..

وهذا الرأي تؤكده القصة التي أشرت إليها .. قصة عفاف ..

وإذن .. فنحن نري أن فرص الحب الأول في النجاح والإستمرار .. هي فرص محدودة جدا.. وينتهي أغلبها بالفشل .. رغم بقائه لصيقا في الذاكرة الوجدانية والعاطفية للإنسان ..

وتتراوح المشاعر تجاه الحب الأول .. ما بين الوهم والحقيقة .. حيث يعتقد البعض أن ذكرى الحب الأول لن تمحوها الأيام ولا السنين ..

إلا أنها سوف تنضم إلي غيرها من الخبرات التراكمية .. والتي يمارسها الإنسان .. فيؤدي بشكل أفضل .. ويمارس حياته الإجتماعية .. بما فيها حياته العاطفية .. بشكل أكثر حكمة ..

وعلى الإنسان أن يحاول تحقيق الإتزان النفسي والعاطفي .. في تجربة ليس من المهم ترتيبها .. هل هي الحب الأول .. هل هي الحب الأخير ..

المهم أن تكون هي الحب الحقيقي ..

البعض يعيش على الذكرى ويتمنى لو عادت به الأيام ..

والبعض يحاول أن ينسى تلك الذكريات .. ويعتبرها ماضي ..

إنتهى ولن يعود ..